(٥)

أساطير ومزيدٌ من الأساطير

لكى نفهم عقلية إسرائيل الجديدة من الضرورى أن نتفحص بقدر أكبر من الدقة ما يحويه التاريخ اليهودى الباكر؛ لكى نرى بالضبط ما الذى اعتبره الإنجليز والأمريكيون قصتهم الخاصة - لكى نرى، كيف فكروا فى أن الرب قد تعامل مع أسلافهم ومن ثم كيف سيتعامل معهم. وليس أقل أهمية لأن العهد القديم يتضمن نسقًا شاملاً من التعاليم الأخلاقية التى تبناها الرواد البروتستانت عن الديموقراطية الأنجلو سكسونية باعتبارها قابلة للتطبيق عليهم.

وعلى أية حال فإنه ربما يكون ما يُنصح به أولا أن نأخذ حفنة من الملح من علماء الآثار، ولاسيما علماء الآثار المصرية؛ إذ إن أهمية تاريخ العهد القديم للفهم البروتستانتى الذاتى لا تتمثل فى أنه كان حقيقيًا، ولكن بسبب الظن فى أنه كان حقيقيًا. . وبسبب هذا المبدأ يعتمد هذا الفصل بشكل كبير على الطبعة المعتمدة من الكتاب المقدس، وهى الطبعة المعروفة فى أمريكا تحت اسم طبعة الملك چيمس. وثمة ترجمات أكثر دقة موجودة على الرغم من أنها ليست على نفس درجة جودة النثر الإنجليزى الموجود فى الطبعة المعتمدة. ولكن حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الطبعة الوحيدة التى تعودت عليها الغالبية العظمى من سكان بريطانيا وأمريكا هى طبعة سنة ١٦١١م التى عُينت للقراءة فى الكنائس بأمر من الملك چيمس الأول. ولأننا نهتم هنا أساسًا بما ظنوا أن الكتاب المقدس قد قاله، بدلا من الاهتمام بما قيل فعلا، فإن هذه هى الطبعة التى سوف نقتبس منها. وثمن ذلك هو قدر أقل من الوضوح فى بعض المواضع؛ ولكن إذا لم تكن واضحة تمامًا لنا المعانى التى يحملها النص، فلابد إذن أنها لم تكن واضحة للقرّاء فى القرون السابقة.

والدليل الأثرى يدل على أن كثيرا من الحكايات فى العهد القديم لا تكاد تتصل

بالحقيقة التاريخية على الإطلاق، أو أنها فى أفضل الأحوال مبالغات ضخمة ونفخ كبير فى حوادث صغيرة . ولا شك فى أن التاريخ الشفاهى يصير أفضل عند الحكى، وكما حدث عدة مرات منذ ذلك الحين، فإن الحكاية الأصلية للأمة الجديدة كانت تفترض أهمية ما يمكن تبريره تاريخيا . وكما لاحظ إرنست رينان سنة ١٨٦٣م فى كتابه الشهير Life of Jesus « ليس هناك شىء عظيم تأسس لم يرتكز على أسطورة» ؛ ذلك أن الأمم تحتاج إلى الأساطير وتبحث عن الحوادث التاريخية لتكون المادة الخام التى تصنعها منها . والعملية الإبداعية بأيدى الشعراء والقصاصين والرواة، تكمن مهارتهم فى الاستحواذ على الخيال، وليس فى سيطرتهم على الحقائق الجافة . والأساطير تعمل كأفضل ما يكون، على أية حال، إذا ما كان أولئك الذين يتلقونها يصدقونها باعتبارها صادقة بالفعل . والمشكلة هى أنه بينما تهلل مثل هذه الأساطير للأمة التى ينتمون إليها، فإنها غالبًا ما تفعل ذلك بالحط من شأن الأمم الأخرى . وهكذا تتحول الأساطير بسهولة إلى بغضاء طويلة الأمد تجاه جيرانهم، وإلى انحياز طويل المدى أو كراهية لا أساس لها من الحقيقة . وليس هذا موضع التاريخ الخالى من الأساطير، فليس هناك شىء من هذا القبيل، ولكنها حجة فى عملية إعادة الفحص اللانهائية لقصة كل أمة ؛ لكى تتقدم بها أقرب صوب الحقيقة، والوعى العام بأن الحقائق البديهية، لا يجب الثقة بها بشكل مطلق .

وثمة مشكلات تاريخية مشابهة هنا . هل حدث أبدا أن حاز العبرانيون عملاً يعتبر سندا للقب صنع فى السماء للأرض التى تسمى أرض كنعان؟ هل حدث أبدا أن اضهد المصريون القدماء العبرانيين؟ على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها الأثريون فى القرن التاسع عشر للبرهنة على قصة العهد القديم ـ حتى سيجموند فرويد كانت له يد فى مقالته Moses and Monotheism ـ فليس هناك أثر فى الكتابات المصرية القديمة عن وجود عدد كبير من العبرانيين قبل الأحداث الواردة فى سفر الخروج، كما لم يرد أى ذكر لحادث الخروج نفسه . أما بالنسبة لكنعان فإن الأدلة الأثرية توحى أن عملية الاستيطان كانت تدريجية للغاية . وليس ذلك نموذج الغزو المفاجئ الذى قامت به إحدى القبائل لأخرى على حد ما هو وارد فى العهد القديم . وثمة حقيقة لم تنقلها حكايات الكتاب المقدس وإنما كشفت عنها الأدلة الأثرية، هى أن الكنعانيين كانوا مجتمعا أكثر تقدما وحضارة من العبرانيين . ومن

المحتمل أن الكنعانيين كانوا هم أول من استخدموا الحروف الهجائية المنظمة فى لغتهم المكتوبة.

وفى انجلترا القرن التاسع عشر، تأسست جمعية الاستكشاف المصرية، أشهر رعاة العالم لعلم الآثار المصرية، للبحث عن آثار مدينة فيثوم. مدينة الكنوز ومدينة رمسيس، التى قال الكتاب المقدس (خروج ١ : ١١) إن العبيد العبرانيين قد بنوها. وموضع هاتين المدينتين معروف ـ فرمسيس التى ذكرها الكتاب المقدس من الواضح تماما أنها بى رمسيس، التى بنيت لتكون عاصمة للفرعون العظيم رمسيس الثانى. ولكن لا يوجد دليل على أن اليهود ساعدوا فى بنائهما. وعلى أية حال فإن هذا لا يغير من الإمكانية الكامنة بأن فرعون الخروج كان هو أعظم الفراعنة جميعا. ولا حاجة بنا إلى القول بأنه ليس هناك دليل على الرواية التى أنتجتها هولى وود على أن العبيد اليهود هم الذين بنوا الأهرامات، إذ إن تاريخها يرجع إلى أكثر من ألف سنة سابقة.

كما أن لا يوسف الذى صار وزيراً للفرعون بعد أن فسّر أحلامه تفسيرا صحيحًا ولاموسى، الذى ارتقى أيضا مرتبة عالية بعد أن تبنته ابنة فرعون، يظهرا فى التاريخ المصرى المسجل. فقد كان رحيل بنى إسرائيل من مصر وعبور البحر الأحمر محل تجاهل، على الرغم من أن بعض الأوبئة التى سبقت الخروج تتصل فعلا بحوادث طبيعية شائعة الحدوث، مثل فيضانات النيل الكارثية التى يملك الأثريون أدلة عليها. وهو أمر أكثر من التخمين أنه كان يمكن أن يكون هناك بعض الصلة بين وجود العبرانيين (الموحدين) والعبادة التوحيدية التى عاشت زمنًا قصيراً للفرعون إخناتون حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وأحسن دليل قوى هو التشابه بين أنشودة آتون والمنسوبة إلى إخناتون نفسه؛ وآتون وهو الشمس، هو أيضا إله واحد خلق العالم والمزمور رقم ١٠٤ فى العهد القديم على سبيل المثال:

«تجعل ظلمة فيصير ليل. فيه يدب كل حيوان الوعر. الأشبال تزمجر لتخطف وتلتمس من الله طعامها» (مزامير ١٠٤ : ٢٠ ـ ٢١):

وتقول أنشودة آتون:

«حينما تجلس أنت فى الأفق الغربى يلف الظلام أرض العالم مثل الموت. . . ويخرج كل أسد من مكمنه».

هذه التشابهات التى يصفها عالم الآثار المصرية چون رومر بأنها واضحة ودقيقة

ليست موجودة فقط فى مثل هذه التشابهات، ولكن أيضا فى تتابع الأفكار. والخلاصة هى أن كاتب المزمور كان يعرف أنشودة آتون أو صيغة منها، واتخذها نموذجا. ويوحى هذا بأن الإسرائيليين كانوا مدركين تماما بالفترة التوحيدية القصيرة فى تاريخ مصر. وفضلا عن ذلك، ربما كانت هذه معرفة معاصرة حيث إن الفراعنة التالين اعتبروا إخناتون منشقا ومخالفا وبذلوا ما فى وسعهم لمحو ذكراه. كما يوحى أيضا بأن العبرانيين كانوا قادرين على قراءة النصوص الهيروغليفية: إذ إن أنشودة آتون محفورة على مقبرة الفرعون آى بتل العمارنة فى مصر الوسطى.

ومع هذا فإنه دليل غير جازم، والإشارة الوحيدة التى لا جدال فيها إلى بنى إسرائيل فى أى نص مصرى قديم، هى ما يسمى «لوحة إسرائيل» فى المتحف المصرى بالقاهرة، والتى يبدو أنها تصف الإسرائيليين على أنهم تبددوا شذرا على يد الفرعون مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى، ربما فى كنعان، بيد أنه لا توجد قصة كهذه فى العهد القديم.

وحتى مع الأخذ فى الاعتبار المبدأ القائل بأن كل محارب لابد وأن يبالغ فى حجم انتصاراته ولا يسجل هزائمه (أو يحولها إلى انتصارات أيضا)، فمن المذهل كيف أن الهبات الكبرى التى وصفها الكتاب المقدس لم تترك على الأرض سوى آثار ضئيلة، فهل حدثت فعلاً بالمرة؟ وما تلى الهروب من مصر حسبما حكى فى سفر الخروج هو التيه الإسرائيلى فى البرية على مدى أربعين عامًا فى سيناء، وهو أمر لم يكن من الممكن أن يترك وراءه أى دليل أثرى. ولكن ما حدث بعد ذلك كان لابد وأن يترك أثرًا. وحسبما يجادل رومر:

«على النقيض من القصة التى أوردها الكتاب المقدس عن أن جيشًا إسرائيليًا متوحشًا قد دمر مدن كنعان القديمة الشريرة وأسس دينا جديدا ووطنا جديدا مكانها، فإن علم الآثار يوضح أن حقيقة التغير بين عصر البرونز وعصر الحديد فى فلسطين، كان تحولا تدريجيا تم الحفاظ فيه على أشكال العبادة التقليدية، كتعبير قوى على علاقة الإنسان بالمقدس، سواء مع يهوه الذى ذكره الكتاب المقدس أو آلهة كنعان القديمة... ولذلك فإنه على الرغم من أن الكتاب المقدس يؤكد على الجدة والتفرد الذى يتميز به يهوه، فإن علم الآثار يكشف عن أن الفروق بين الطقوس التى ذكرها الكتاب المقدس لعبادته وعبادة كنعان القديمة كانت طفيفة.

والحقيقة أن هذا كان بلا شك هو السبب فى أن الأنبياء هاجموا الآلهة القديمة على مر القرون، حتى لا يتم ذوبان الديانة الجديدة فى الأساليب القديمة».

وهى نقطة تتشابه مع النقطة التى أوردناها بالفعل للربای لويس جاكوبس. وعلى أية حال فإنه ينبغى ملاحظة أن الربى جاكوبس ظل وقتا طويلاً على خلاف مع السلطات اليهودية الأرثوذوكسية، **بسبب تساؤله عمّ إذا كان موسى هو الكاتب الحقيقى للأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (التوراة)؟.**

وهذا يحل المسألة تماما ـ فإذا كان الكتاب المقدس تاريخا، فأى نوع من التاريخ هو؟ والإجابة التقليدية بين اللاهوتيين اليهود والمسيحيين على السواء خارج معسكرات الأصوليين فى كل من الديانتين هى أنه تاريخ الخلاص، ولا يبدو أن معظم الناس (بما فى ذلك غالبية أتباع الديانتين) قد سمعوا تعريفا مثله. إنه سرد قصصى بؤرته الأساسية العلاقة النشطة بين البشرية والرب. والعهد القديم كله تقريبًا لا يهتم بعلاقات الرب مع البشرية جمعاء ولكن بجزء صغير منها، مجموعة من قبائل الشرق الأوسط تزعم انحدارها من صلب أب واحد، هو إبراهيم. وتظهر القبائل والأمم الأخرى وتختفى حسب دورهم فى القصة الرئيسية. ويدخل الرب فى القصة؛ لأن معظم نجاحات وإخفاقات هذه القبائل منسوبة إلى تدخله، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وفى بعض الأحيان تسير الأمور معهم سيراً حسنًا؛ وفى بعض الأحيان يتركها تسوء. وعلى طول الطريق يتعلمون المزيد عنه، وتصبح أفكارهم الدينية أكثر حذقًا ودقة، وأشد تعقيدا وأكثر إثارة. والحقيقة أيضا أنهم كانوا على طول الطريق يلتقطون تأثيرات من قبائل أخرى، وديانات أخرى، وبعض هذا الحذق ربما جاء من هذه المصادر الخارجية. بيد أنهم نادرا ما يعترفون بهذه الحقيقة إذا اعترفوا بها على الإطلاق، كما لو أن فعل ذلك قد يقلل من تفرد علاقتهم مع الرب.

وما يزيد من تعقيد مفهوم العهد القديم باعتباره تاريخا للخلاص هو أن الكثير منه يروى كما لو كان تاريخا حقيقيا، حسبما نفهم المصطلح. وما يزال من خصائص الأصوليين، لاسيما فى الولايات المتحدة، أن يتعاملوا معه كما لو كان حقيقيا بشكل حرفى وكما لو أنه زعم أنه سجل علمى. إنه ملىء بقصص من عينة أن X فعل Y لـ Z وكانت النتيجة ABC. والأسلوب الصحيح لمقاربة تاريخ الخلاص الذى يتخفى تحت قناع التاريخ الحقيقى هو بحفنة من الملح طالما أن الحقائق

هى موضع الاهتمام، ولكن بعقل مفتوح فيما يتعلق بما كان الكاتب يحاول حقًا أن يقوله. وبعد ثلاثة آلاف سنة من الزمان لا تكون للتفاصيل الدقيقة لما فعله X لـ Z مهمة على الإطلاق. أما قد يكون ما يزال مهمًا فهو لماذا فعلها X، ولماذا كان رد فعل Z على هذا النحو، وماذا كان غرض الرب وراء هذا كله؟ هل كانت ABC هى النتيجة التى أرادها؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ وبالنسبة لنا ـ مع افتراض أننا فى سياق عقلى يجعلنا نطرح مثل هذه الأسئلة ـ فما الذى ينبئنا به هذا؟

وثمة معنى أبعد يمكن استخراجه إذا ما كنا مهتمين بتعاملات الرب مع هذه المجموعة المخصوصة من القبائل السامية، والسبب الدقيق هو أنها كانت أو يظن أنها كانت مختارة بشكل خاص، لأننا إذا كنا جزءًا من جماعة تشعر أيضا أنها مختارة بشكل خاص، بل والأكثر من ذلك إذا كانت تلك الجماعة تعتبر نفسها بمثابة الخليفة للجماعة الأصلية، فإن بوسعنا إذن أن نتعلم من التجربة التى مرت بها تلك الجماعة الأولى الكيفية التى يتوقع الرب من جماعتنا أن تتصرف بها. بل إننا يمكن حتى أن نتنبأ بالمستقبل، لأنه بينما لايعيد التاريخ الحقيقى نفسه، فإن تاريخ الخلاص كان من عادته أن يعيد نفسه. ولكى تزيد من تعقيد المسألة فإن هذه الممارسة سوف تتضمن الطمس المستمر للخط الفاصل بين التاريخ الحقيقى وتاريخ الخلاص.

هل كتب موسى أسفار التوراة الخمسة؟ نعم، إذا ما طرح السؤال داخل قواعد تاريخ الخلاص ـ وبعبارة أخرى فإن تاريخ الخلاص يدعونا إلى قراءة الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس كما لو كانت قد كتبت بيد موسى. ولكن لا إذا ما جرى اعتبارها تاريخا حقيقيا؛ لأن الإجابة بنعم لاتناسب الحقائق التى كشف عنها التاريخ الحقيقى **(كما أنها لاتفسر لنا كيف أن كتابًا كتبه موسى يصف موت موسى نفسه)**.

كل هذا يغير من الطريقة التى تتم بها قراءة الكتاب المقدس وتفسيره. فبالنسبة لأولئك الذين يريدون للكتاب المقدس أن يكون إما صحيحًا أو مزيفا، دون التروى عند هذه الدرجات التى يتدرج بها المعنى، يكون هذا غير مشبع بالمرة. وهذه مشكلة ضاغطة بالنسبة للپروتستانتية الحديثة، على نحو ما سنناقشه فيما بعد. **فهل المسيحيون المحدثون، مثلاً، ملتزمون بالاعتقاد بأن الرب أعطى الأرض الموعودة للعبرانيين؟ وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا الحصاد النهائى ـ عودة اليهود إلى ما يزعمون أنه أرض أسلافهم فى القرن العشرين كانت سببًا فى صراع دموى مطول فى الشرق الأوسط ـ فإن هذا ليس سؤالا أكاديميا بأى حال من الأحوال. بيد أن المسيحية الحديثة ليست مجهزة جيدًا للإجابة عنه.**

وتتعقد المقارنة المنهجية بين تاريخ بنى إسرائيل القدماء والمنافسين الرئيسيين على لقب «إسرائيل الجديدة» أى انجلترا وأمريكا بسبب عدة عوامل. أولا: أن النظام الزمنى لتتابع الأحداث مختلف. فإذا ما تتبعنا توالى المواقف والأحداث التى ورد ذكرها فى العهد القديم، بحثًا عن مواقف وأحداث فى التاريخ الإنجليزى والأمريكى كان مفهوما زمن حدوثها أنها يمكن مقارنتها بمواقف وأحداث العهد القديم، فإن التتابع الزمنى لابد وأن يكون مختلفا. فمثلا فى الكتاب المقدس جاء موسى قبل جدعون. أما فى التاريخ الأنجلو أمريكى فإن أوليفر كرومويل الذى يقرن بجدعون فى القرن السابع عشر، على حين أن چورچ واشنطن الذى يقرن بموسى كان فى القرن الثامن عشر، وهو ما يعنى بالمصطلح التاريخى النظام الخطأ، ولكن لأن اهتمامنا منصب أساسًا على التاريخ الخلاصى وليس على التاريخ كما حدث بالفعل، فانه يكون من الأصوب أن نقتفى تتابع الأحداث فى العهد القديم، وبالتالى نقبل أن هذا يعنى رواية التاريخ الأنجلو أمريكى فى أسلوب قد يبدو مربكًا، خارج نظامه الزمنى التتابعى (الكرونولوچى)؛ ولذلك فلأن موسى جاء قبل جدعون، فإننا سوف نتناول چورچ واشنطن (بمنطق التنميط) قبل أن نتناول كرومويل.

هذا التناول غير المتسق زمنيا يمكن تبريره أكثر بحقيقة أن تاريخ الخلاص له نموذج دورى خاص به. وربما يكون هناك تقدم من دورة إلى دورة تالية - فتاريخ الخلاص لا يعيد نفسه تماما أبدا - ولكن النماذج المتشابهة تظل تتوارد. وهكذا فإن الحرب الأهلية الأمريكية قد تم التنبؤ بها من جانب هاريت بيشر ستو باعتبارها عقابًا إلهيا جزاء الشر الأمريكى الذى تمثل فى السماح بالعبودية، والنكسات التى عاناها البريطانيون على الجبهة الغربية فى الحرب العالمية الأولى، كانت فى نظر أسقف لندن عقابًا إلهيًا جزاء التهاون البريطانى فى المسائل الدينية والأخلاقية. هذان المثالان، واللذان تفصل بينهما أكثر من ستين سنة، وليست بينهما أية علاقة سببية أيّا كانت، إنما هما مثالان على الفكرة نفسها - أن الرب يعاقب شعبه المختار عندما يسىء السلوك. وحقيقة أن أمريكا ما قبل الحرب الأهلية وبريطانيا أبان الحرب العالمية الأولى لا يمكن أن تكون كلتاهما سويا شعب الله المختار، على الرغم من أن هذا الاعتبار قد يسوقنا إلى استنتاج أنه فى الحقيقة لم تكن أيتهما شعب الله المختار، وتلك الحقيقة لايجب أن تضللنا، فنحن نتعامل مع ما اعتقده الناس عن أنفسهم وكيف أثر ذلك على أفعالهم فى الزمان، وليس مع ما نعتقده نحن عنهم الآن.

يبدأ الكتاب المقدس بحكاية مختصرة عن خلق العالم. والسفر الأول يصف كيف تم خلق كل شيء فى ست فترات أو أيام. شهد اليوم الأخير منها وصول الإنسان الرجل (وبعده مباشرة المرأة) وعاشا حياة زوجية هانئة وبراءة أصلية حتى أغواهما الشيطان، وخرقا الناموس وطردا من جنة عدن، التى كانت موطنهما الأصلى الكامل. والفعل الرمزى للعصيان هو أكل تفاحة من شجرة معرفة الخير والشر، والتى جاءت منها عبارة الفاكهة المحرمة Forbidden Fruit لتدخل اللغة الإنجليزية. هذا العصيان وعواقبه عرف باسم السقوط. وكل البشر منحدرين من صلب هذين الزوجين، على نحو ما يؤكد الكتاب المقدس، وهى إحدى المعلومات الواردة فى الكتاب المقدس التى أيدها البحث الحديث فى الچينات الوراثية. ففى العصور الحديثة تؤخذ السلالة العامة للبشرية على أنها مناقشة وحجة لاهوتية ضد العنصرية، ولكن لايبدو أن ذلك هو ما حدث مع المفسرين المسيحيين الذين فسروا الكتاب المقدس قبل القرن العشرين بزمن طويل. وعلى أية حال، فإن البحث فى الچينات الوراثية لا يعطى أى وزن علمى لنظرية السقوط نفسها.

وكانت نتيجة تعدى آدم وحواء وتجاوزهما الكارثى هى أنهما وكل ذريتهما قد وصموا بالخطيئة (الخطيئة الأصلية). **ولأن القصة الأصلية تقول إن حواء كانت هى التى أغوت آدم، فإن المعالجة اليهودية المسيحية للأنوثة كانت دائما تتسم بعدم الثقة. وفى حالات إساءة السلوك الجنسى يتمثل الانحياز الكامن فى القول بأن المرأة دائما هى مصدر الغواية، والرجل ضحية الإغراء: و بالتالى تتحمل المرأة النصيب الأكبر من اللوم. وكانت إحدى العقوبات القاسية وغير العادية التى أنزلها الرب على النساء نتيجة للسقوط هو الألم الشهرى الذى يعتريهن نتيجة الحيض، والتى ما تزال تسمى (فى أوروبا) اللعنة لهذا السبب.** إنه من خصائص الصيغة اللوثرية والكالڤينية من البروتستانتية أن تأخذ الخطيئة الأصلية على أنها تعنى أن البشرية كانت مجردة تماماً وغير قادرة على إنجاز أى فعل ذى جدارة، فالإنسانية خاطئة فى صفاتها كما أنها خاطئة فى الأفعال الفردية، ومن ثم فإن البشرية التى لم تكفر عن ذنوبها مدانة ومحكوم عليها بالجحيم، ولا يمكنهم فعل شيء حيال ذلك، فالرب وحده الذى يمكنه أن يغير الحكم. وقد اتخذت الكاثوليكية والبروتستانتية المتحررة رؤية أكثر لطفا للإنسانية، ولا حاجة بنا إلى القول بأن النصوص الواردة فى الكتاب المقدس يمكن اقتباسها لتبرير كل من وجهتى النظر. (بيد أن ذلك لا يجب أن يقودنا

منطقيا لاستنتاج أن كلاً منهما كانت غير حقيقية. فالطبيعة الإنسانية أكثر تعقيداً من ذلك، وكذلك اللاهوت المسيحى). وقد اصطدم وصف الكتاب المقدس بنظريات تشارلز دارون فى القرن التاسع عشر صداماً مدوياً؛ مما أحدث ضرراً دائماً على الإحساس العام بإمكانية الاعتماد على الكتاب المقدس بوصفه تاريخاً. والآن فقط يمكن التمسك بالحقيقة الحرفية للكتاب المقدس وإنكار التطور تماماً، وما يزال هناك عدد كبير من الأمريكيين يؤمنون بنظرية الخلق التوراتية. وما تزال عقيدة السقوط والخطيئة الأصلية تضع مشكلات خطيرة ينبغى على المسيحية الحديثة (أى ما بعد الداروينية) أن تحلها بشكل نهائى. ولكن هناك مشكلات لم يتم حلها عن أصول البشرية ليست أقل خطورة بالنسبة للداروينية. ومن السابق لأوانه أن يزعم أى من الجانبين أنه حقق نصراً كاملاً، والمرجح أن الحكمة سوف تستقر فى نهاية المطاف على شىء يصالحهما سوياً. وخارج معسكرات الأصوليين، بل وفى داخل هذه المعسكرات إلى حد ما، فإن الحقيقة العريضة لنظرية دارون تلقى الآن قبولاً عاماً. وسيكون من الإنصاف القول بأن العلم عندما قوّض رواية الكتاب المقدس عن الخلق من خلال الداروينية، فإنه لم يلبث أن أعاد لها بعض المصداقية من خلال نظرية القرن العشرين عن الانفجار الكبير، وبعدها مع ما يسمى بالمبدأ الإنسانى (الذى يقرر أن الكون يبدو أنه كان مبرمجاً بشكل مسبق لتطور الحياة النهائى).

فبعد السقوط، بدأ آدم وحواء عائلتهما ذات العدد الكبير بابنين هما قابيل وهابيل، اللذان تشاجرا فى مشاجرة دفع هابيل حياته ثمناً لها. وقد طرد قابيل، وحكم عليه بلبس علامة دائمة (حملها نسله أيضا من بعده). وقصة قابيل القاتل الأول كانت رائجة جدا بين المبشرين البروتستانت، على الرغم من أنه كان هناك خلاف بينهم حول تفسيرها النمطى. فقد رأى البعض قابيل بوصفه النمط العتيق للكاثوليكية الرومانية، أو بعبارة أخرى مصدر كل القلق من وجهة النظر البروتستانتية؛ وزعم آخرون أنهم يعرفون أن «العلامة الشهيرة» إن هى إلا البشرة السوداء فى الواقع، بحيث إن قابيل كان الجد الأعلى للأفريقيين السود. كذلك استخدمت معاملة قابيل لتبرير تحديد المنبوذين أو فرزهم. وبصرف النظر عن فعل العصيان الأصلى من قبل آدم وحواء، فإن قتل قابيل لأخيه هو الخطيئة الأولى التى سجلها تاريخ الكتاب المقدس، والنمط العتيق لكافة الخطايا التى ارتكبت منذ ذلك الحين. وحقيقة أن الرب لم يطلب موت قابيل وأمر بأنه لايجب أن يتعرض

للمضايقة ربما بدت حجة قوية ضد عقوبة الإعدام، بيد أن البيوريتان الأصليين، الذين كان يروق لهم الشنق من حين لآخر، لم يكونوا يبحثون عن مثل هذا الإلهام. وحقيقة أن الذى قتل هابيل هو أخوه قدمت ذخيرة قوية من الكتاب المقدس ضد العدو فى الداخل، وغذت الخوف من المؤامرات والدسائس الذى كان من سمات البروتستانتية التى تعتمد على الكتاب المقدس فى عز أيامها - لاسيما عندما انقسمت العائلات بسبب الحرب الأهلية.

وإذا كانت لقابيل ذرية، فإن الكتاب المقدس لايشرح كيف عمروا بعد الطوفان الذى هو الحادث التالى الكبير فى مايرويه الكتاب المقدس عن فترة ما قبل التاريخ. وهكذا يئس الرب من الفوضى والتشويش الذى كان نسل آدم وحواء يفعلونه فى الدنيا لدرجة أنه قرر أن يبدأ من جديد. وكان للطوفان أن يقتل كل شىء حى فيما عدا أولئك الذين تم إنقاذهم بالسفينة التى بناها نوح، والذى كان هو الإنسان الوحيد الطيب بين كل الحفنة البشرية السيئة. وقد وجد المبشرون مادة غنية فى هذه القصة. ويعتبرها الباحثون الآن تجميعا لمختلف الملاحم والأساطير البابلية، باستثناء العامل الجديد القائل بأن نوح تم إنقاذه؛ لأنه كان رجلا صالحا «يسير مع الرب». وربما تكون القصة وربما لاتكون، على صلة بحادث حقيقى ما فى الإقليم الذى نشأت فيه القصة أصلاً، والتى تحددت الآن بنهرى دجلة والفرات فى العراق حاليًا.

والاستنتاج الذى نخرج به من قصة نوح هو أن الرب يعاقب الأشرار بالتدمير ولكنه ينقذ الصالحين الباقين - وهو موضوع منتظم فى نصوص الكتاب المقدس اللاحقة. فكرة أن الباقى قوى - وكان الباقون من اليهود هم الذين نجوا من الأسر البابلى، وقد رأى المسيحيون الأوائل أنهم هم الباقون من بنى إسرائيل والذين قدر لهم أن يكونوا إسرائيل الجديدة. ومن الواضح أن مستوطنى نيوإنجلاند كانوا يرون فى أنفسهم بقية صالحة أخرى. نجوا من الدولة الخاطئة التى كانت هى انجلترا تحت حكم چيمس الأول وشارل الأول. وفى العصور الحديثة ما يزال البروتستانت فى شمال أيرلندا يفهمون وضعهم على أنهم البقية المؤمنة بهذا المعنى الوارد فى العهد القديم، وهم مخلصون لنموذج مثالى خيالى عن بريطانيا البروتستانتية تستحوذ على خيالهم، ومايزال التنميط على نمط شعب الرب أحد ملامح التبشير البروتستانتى فى أيرلندا الشمالية.

وكان اللاهوت المسيحى التقليدى يرى فى مياه الطوفان تورية عن مياه

المعمودية؛ وأن فناء الجميع، باستثناء القلة الصالحة (نوح وأقاربه) كناية عن يوم الحساب. ومن المنظور البيوريتانى فإن لهذه القصة ميزة أنها تؤكد على أن المختارين، أى أولئك الذين تم اختيارهم لإنقاذهم، أقل كثيرا من المدانين. ومن وجهة نظر خضراء أكثر حداثة، فإن القصة تؤكد على كيفية أن أفعال البشر السيئة، أى ذنوبهم، يمكن أن تهدد العالم الحى بأسره ـ لقد كان الطوفان أول كارثة بيئية يتم تسجيلها.

وبعد نجاة نوح وعائلته، يصف الكتاب المقدس كيف دخل الرب حينئذ فى عهد معه ومع البشرية بأسرها من خلاله. وفى مقابل عدم تدمير العالم مرة ثانية، طلب الرب وضع نهاية لإراقة الدماء البشرية والتخلى عن أكل الطعام الذى يحتوى على دماء الحيوان. **ومن التفاصيل المسلية أن الكتاب المقدس ـ طبعة أورشليم الجديدة ـ يضع عنوانًا على هذا الإصحاح هو النظام العالمى الجديد.** والواقع أنه فى التراث اليهودى تم توسيع العهد الذى عقده الرب مع نوح ليكون عهدًا مع الجنس البشرى كله، وهو ما صار إجابة يهودية مشتركة على الشكوى من أن الرب يدخوله فى ميثاق مع اليهود وحدهم، إنما يظهر تفضيلاً لجماعة صغيرة ويتجاهل بقية البشر.

وبالتالى فإن الكتاب المقدس يحكى كيف أن حام ابن نوح جاءه وهو مستغرق فى النوم وعار من ثيابه، وأخبر أخويه اللذين لم ينظرا إلى عريه ولكنهما غطيا أباهما بثوب. وعلى أساس هذه الحادثة التافهة وضع نوح اللعنة، لا على حام وإنما على ابنه كنعان!:

«فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما. ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته» ـ تكوين ٩ : ٢٢ ـ ٢٥.

وفيما بعد أعطى كنعان اسمه للأرض الواقعة إلى الجنوب؛ وربما تفسر حالته المتدنية لماذا لم يستمر إطلاق اسم قبيلته على الأرض ساريًا أبدًا، ومن ثم أمكن دفع الكنعانيين جانبا كلما وجدوا فى الطريق. والأرض التى تسمى أرض كنعان عرفت فيما بعد باسم الأرض الموعودة التى أعطاها الرب للعبرانيين.

وشريعة نوح حسبما يسمى التراث الربانى اليهودى الجانب الإنسانى من الصفقة ليس معبراً عنها بشكل واضح فى الكتاب المقدس، ولكن تم استخراجها من الدليل الوارد فى الكتاب المقدس. وإذ تم جمعها على هذا النحو كونت «توراة الأمميين» (لأن توراة اليهود هى الوصايا العشر). وبمقتضى هذه الوصايا السبع التى تمثل شريعة نوح يحرم على الأمميين عبادة الأصنام، والكفر، والقتل، والزنا، وإتيان المحارم والسرقة وأكل اللحم وبه الدماء. وهم مأمورون أيضًا بوضع نظام للعدالة. ولكنها ليست موجودة بشكل واضح فى الكتاب المقدس، وإنما تعتمد على سلطة الأحبار اليهود، فإن شرائع نوح لم تأخذ الاهتمام الذى تستحقه فى العالم المسيحى. وربما يكون السبب فى هذا أن المسيحيين لا يشعرون بقوة مشكلة ميثاق نوح حتى يحلوها ـ لماذا اختار الرب اليهود وحدهم؟ وربما يكون السبب أنه نتيجة للجدل المثار حول الاستبدال، والذى أشرنا إليه فى الفصل السابق. يستحق ميثاق نوح أن يعود إليه الباحثون المسيحيون. وقصة نوح هى أيضا جزء من الإيمان الإسلامى.

والقصة النهائية قبل أن يحول سفر التكوين انتباهه إلى إبراهيم، هى عن برج بابل، الذى يظن الباحثون المحدثون أنه كان فى مكان ما ببلاد ما بين النهرين. فقد رأى الرب برجا عظيما، ورأى أن الجنس البشرى يتعاظم بشكل متزايد. ولكى يحول دون حدوث أى تعاون من هذا النوع فى المستقبل، كسر وحدة اللغة التى كان الجنس البشرى يستمتع بها حتى ذلك الحين. وكثيرا ما كان المبشرون يوظفون قصة برج بابل باعتبارها كناية عن شرور حياة المدن. ومرة أخرى كان الدرس هو أن الرب سوف يتدخل لعقاب البشر الذين يسلكون مسلكًا سيئًا. وكل من قصة حام وقصة برج بابل، توحى لأى شخص يأخذهما حرفيًا، أن الرب الذى يصوره العهد القديم كان من الممكن إغضابه بسهولة ولم يكن ممكنًا التنبؤ بأفعاله! أى نوع من الأب سريع الضيق الذى يحرص الأبناء على عدم إغضابه. والحقيقة أن هذا بالضبط هو نوع الانطباع الذى كان المبشرون البيوريتان يريدون إعطاءه.

أما إبراهيم، الذى يرد الكلام عنه غالبًا باعتباره الجد الروحى لليهود والمسيحيين والمسلمين، فقد بدأ حياته فى آرام، رجلاً مسنًا من أبناء القبائل عاش فى مدينة أور جنوب العراق. وقد تمكن علماء الآثار من إعادة بناء عناصر من الديانة والثقافة التى كانت للسكان الأصليين فى الإقليم قرب زمن إبراهيم، وهى توضح درجة مدهشة

من الاتفاق مع رواية الكتاب المقدس. وقد غير هذا من الرأى السابق للعلماء بأن إبراهيم ومن عاصروه إنما كانوا فى الحقيقة أنماطًا أسطورية عتيقة، تم اختراعها لتجسيد وإحياء قصة ضبابية معتمدة عن ذكرى الأصول العبرانية.

ويقدم سفر التكوين إبراهيم بوصفه مؤسس ما كان فى الحقيقة حركة دينية جديدة. إذ كانت لها ربها الخاص، الذى عقد معه إبراهيم ميثاقًا. والإخلاص للميثاق أو العهد كان لابد له أن يُعتمد ويُصَدَّق عليه بطقس الختان، وفى المقابل وعد الرب إبراهيم بأنه سيجد وطنًا. وبأمر الرب قاد قبيلته للخروج من أور؛ وبعد قدر من التأخير، استقروا فى أرض كنعان. وقد منح الله كنعان لإبراهيم وذريته باستمرار، وهى هبة تجددت تحت قيادة موسى. وبعد نوح كان العهد مع إبراهيم هو العهد الثانى بين الله والإنسان، وهو أول عهد يعقد مع شعب واحد دون سواه.

وتدور حول إبراهيم عدة قصص مهمة فى الكتاب المقدس، وهى قصص صارت كتابات محببة فى الكتابات اليهودية اللاحقة، وعلى مرّ الزمان دخلت فى التنميط الكاثوليكى والپروتستانتى. وأشهرها ما يخص المناسبة التى تلقى فيها إبراهيم أمرًا من الرب بأن يستعد للتضحية بابنه المحبوب إسحاق (هو إسماعيل عند المسلمين) وهو مشهد بدا أنه كان ذا جاذبية خاصة لدى البروتستانت فى العصر الڤيكتورى. وكان إبراهيم سيمضى فى تنفيذ الأمر لولا تدخل الرب، الذى أخبره بأن هذا كان مجرد اختبار لطاعته وإيمانه. وهو موضوع منتظم فى العهد القديم أن «أول الثمار» إنما هى للرب، وكان إسحاق هو «الثمرة الأولى» بمعنى من المعانى. وهكذا أعطاه إبراهيم للرب الذى أعاده إليه مرة أخرى. وهنا أيضا بعض أصداء رفض التضحية بالأطفال، التى يحتمل أنها كانت جزءًا من الممارسات الدينية للكنعانيين. لقد كان الرب يعلم إبراهيم بصورة درامية أن ذلك ما لم يكن يريده منه. وفى الكنيسة الباكرة كانت تضحية إبراهيم تتصل بتضحية المسيح.

وثمة قصة أخرى هى قصة تدمير سدوم، صارت أساسًا للإدانة المسيحية التقليدية للشذوذ الجنسى؛ ذلك أن لوط ابن أخى إبراهيم كان قد استوطن فى مدينة بهذا الاسم. وعندما جاء الرجلان ـ اللذان يوصفان بأنهما من الملائكة ـ للزيارة رحب بهما لوط فى منزله. ولكن رجال المدينة تجمهروا فى الخارج، وطالبوا بإحضار الزائرين إلى

الخارج للتعرف عليهما. وبدلا من ذلك قدم لهم لوط ابنتيه العذراوتين، لكى يفعلوا بهما ما يحلو لهم. ويبدو واضحًا أن الجمهرة كان فى ذهنهم عملية اغتصاب جماعية. ومن الواضح أن تقديم بنات المرء بديلاً لإنقاذ رجلين غريبين من مثل هذا المصير كان فى أخلاقيات ذلك الزمن يبدو محل ثناء كبير؛ لأنه حين شرع الرب فى تدمير المدينة جزاء خطاياها رتب لهرب لوط أولا. وكان هذا إكرامًا للصفقة التى عقدها الرب مع إبراهيم. وبينما كانوا يهربون صدر الأمر إليهم بألا ينظروا إلى الوراء؛ ولكن زوجة لوط نظرت وراءها فتحولت إلى عمود من الملح.

ومرة أخرى يبدو معنى العدالة عند الرب غامضًا قليلاً، بيد أن هناك قدرًا كبيرًا من الدروس الأخلاقية الأخرى التى يستخرجها المبشرون من هذه الحكاية الخارقة (ليس أقلها ما يحدث للزوجات العاصيات والاتصال الجنسى فيما بين الرجال، سواء رضوا أم لم يرضوا، وهو أكثر شرًا من اغتصاب النساء). وربط سدوم بالشذوذ الجنسى كان أقوى فى البروتستانتية، وبقدر أقل فى الكاثوليكية، وأقل من ذلك فى البحث اليهودى حيث يعتبر عدوان السدوميين الحقيقى على الأخلاق هو رفض احترام الغريب، ومن ثم فهى خطيئة ضد واجب الضيافة. والسدومية لاتوجد فى الكتابات اليهودية باعتبارها مرادفًا لممارسة الشذوذ الجنسى، كما هو الحال فى المسيحية. وفى أماكن أخرى من العهد القديم تستخدم سدوم مثالاً على البغى والإثم المتزايد. ولوط تذكرة أخرى بموضوع البقية الصالحة فى التنميط اليهودى. وفى العهد الجديد (لوقا ١٧ : ٢٩) يرد ذكر تدمير سدوم على أنه نذير بيوم الدينونة؛ وعلى أنه مثال للشر الذى لامثيل له (وهو ما كان يمثل إغراء للمبشرين البروتستانت لمساواته بروما).

وكان لإبراهيم ابن من جارية زوجته هاجر. أما إسحاق فكان ابنه من زوجته سارة. وعندما خشيت هاجر من أن مولد ابن شرعى ووريث شرعى يهدد ابنها صلت للرب تطلب المساعدة (سفر التكوين ٢١ : ١٨).

ولا يتابع العهد القديم هذا الأمر لأبعد من ذلك، ولكن بعد أكثر من ألفى سنة ضمن النبى محمد قصة إسماعيل فى روايته عن أصل الإسلام. ولم يكن الإسلام شيئا غير ديانة إبراهيم على بساطتها القديمة، وإبراهيم هو أبو إسماعيل وجد العرب، تمامًا مثل إسحاق الذى ينحدر اليهود من نسله. وأعلن أن ديانة إبراهيم

الحقيقية قد تشوشت باليهودية والمسيحية؛ وأنه هو محمد خاتم الأنبياء أرسله الله لإعادتها إلى نقائها. وفى الإسلام يقدم ميثاق إبراهيم مع الرب نسخة أخرى من نظرية الشعب المختار؛ إذ إن أصحاب الزعم الجديد فى استحقاق هذا اللقب هم «الأمة الإسلامية»(*). ومثل الدعاوى الأخرى، استبعدت هذه الدعوى كل الدعاوى الأخرى وأنكرتها. ولايمكن أن يكون هناك سوى شعب مختار واحد، وكل جماعة أخرى تزعم لنفسها هذا اللقب كانت تؤخذ على أنها تهديد قاتل. ومثلما أخذ اليهود طقسهم فى الختان من إبراهيم، كعلامة علىٰ العهد كذلك فعل المسلمون(**)، والكتاب المقدس يسجل ختان إسماعيل بشكل محدد (تكوين: ١٧ : ٢٣). كان يعقوب أصغر أبناء إسحاق، وحاز يعقوب على الاسم الإضافى إسرائيل. وفى حينه جاءت الزوجات والأبناء وأبناء الأبناء فى حياة يعقوب- إسرائيل لكى يؤسسوا عائلة من سبعين شخصًا. وكانت هذه نواة الشعب الإسرائيلى. وابن يعقوب يوسف تم بيعه فى سوق النخاسة على يد إخوته، ولكنه ارتقى إلى مركز عال فى البلاط المصرى، وفى النهاية ساعد عائلته على الاستقرار فى مصر هربًا من المجاعة، وقصة كيفية تعرفه على إخوته المعدمين ومسامحته لهم قطعة قوية من الأدب. وكان أبناء يعقوب- إسرائيل هم الأسباط الإثنا عشر من القبائل الإسرائيلية. ولأن مفهوم الرب القبلى كان عاديًا، استغرق الأمر بعض الوقت لكى تتسع الألوهية المحلية إلى مفهوم الرب العالمى الواحد، ليس فقط رب إسرائيل ولكن أيضا خالق العالم. وبحلول وقت الأسر المصرى- فقد تم الترحيب بعائلة يوسف فى بداية الأمر، ولكن فرعون قرر استعبادهم فيما بعد- كان تاريخ الخلاص جاهزا للعنصر الثالث لكى يوضع فى مكانه من القصة التى تكشفت. فقد

(*) الإسلام لا يعتبر المسلمين شعب الله المختار، وذلك لأنه دين للعالمين، أى لكل البشر، خلقهم الله من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا وأن أفضلهم عند الله أتقاهم، فهم سواسية، وفى القرآن ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزى به ولا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا﴾، ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾. من ناحية أخرى فإن الإيمان بالله ورسله وكتبه شرط أساسى من شروط الإيمان الإسلامى؛ وهو ما لايستقيم مع منطق الشعب المختار واستبعاد من قبله- المترجم.

(**) لا يمثل الختان أى عهد عند المسلمين، فما هو إلا سنة- المترجم.

كان رب إسرائيل وخالق العالم على وشك أن يتجلى أيضا باعتباره واضع القانون الأخلاقى؛ أى السلطة وراء الوصايا العشر.

ففى البداية كان لابد من إنقاذ العبرانيين من المصريين. وكانت قصة الخروج من بين أهم القصص فى يهودية العهد القديم، والتى أشير إليها بشكل منتظم فى النصوص اللاحقة. وكان أهم احتفال يهودى فى السنة هو العبور، الذى كان يتم به تذكر تخليص العبرانيين بخروجهم من مصر، ويعاد تمثيله بشكل رمزى، بمعنى انتقالى ارتبط بكل تحول وبكل لغة. وكان النص مصدراً غنيًا للمادة التنميطية سواء فى اليهودية أو المسيحية. وقبل حركة الإصلاح الدينى، استخدم الخروج بشكل تنميطى للإشارة إلى المعمودية، والفصح، والعشاء الربانى. كما أن العبودية التى تم الهروب منها كانت عبودية للخطيئة. وهكذا فإن أبطال العهد القديم - إبراهيم نفسه وموسى وجدعون وشاءول وداود وهلم جرا - كانوا كلهم أنماطًا سبقت المسيح وبشرت به. فقد ناضلوا ضد أعداء إسرائيل الماديين، على حين ناضل هو ضد أعداء إسرائيل / إسرائيل الجديدة الروحيين الذين كانوا أشد خطورة تماما. وقبل حركة الإصلاح الدينى، لم يكن هناك زعيم مسيحى يرضى بأن يسمى نفسه «موسى آخر»؛ فإذا فعل فإن الكنيسة كانت تسرع إلى تذكيره بأن المسيح وحده هو الذى يحق له أن يحمل هذا الاسم.

وكانت مصر (وفرعون بالتالى)، فى التنميط البروتستانتى، هى المعادل لأى طغيان وجد منذ ذلك الحين فصاعدا، كما كان بنو إسرائيل هو الاسم الذى يطلق على أية مجموعة قاومت الطغيان وهربت منه. ومن ثم كان ممكنًا أن تكون مصر هى روما فى عيون البروتستانت فى القرن السادس عشر، أو هى انجلترا بالنسبة للأمريكيين فى القرن الثامن عشر (وبذلك أمكن القول بأن چورچ واشنطن هو موسى). لقد أسقط موضوع «الهروب من الخطيئة» الذى تنادى به الكاثوليكية؛ لأن المذهب البروتستانتى سواء فى صيغته اللوثرية أو الكالفينية، كان يرى أن الهروب من الخطيئة إنما يكون عن طريق الإيمان وحده ومن خلال التسليم لرحمة الرب. والهروب بمجهودات المرء الخاصة كان يوحى «بالأعمال الخيرة» فى المذهب الكاثوليكى التى تلقى أكبر قدر من الرفض لدى البروتستانت.

وهكذا يمكن إسباغ وصف موسى باعتباره نمطًا عتيقًا للمُحرِّر، على أى شخص يستحق هذا اللقب عن جدارة فى رأى البروتستانت. وقدتم وصف كل من أوليفر كروميل

وشارل الثانى بموسى، بيد أن مزاعم چورچ واشنطن كانت أقوى (أو هكذا ظن معاصروه). وكان واحد من كثيرين نسجوا هذه الرابطة هو الباحث العظيم فى جامعة ييل، تيموثى دوايت الذى ضمَّن ما جاء فى سفر التثنية (٣٤: ١٠ ـ ١٢) فى خطابه بمناسبة موت واشنطن سنة ١٨٠٠م، «ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه. فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه، وفى كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل» وأضاف: «إن واشنطن مثل موسى الذى ولد لأبوين بسيطين ولكنهما جديران بالاحترام؛ ومثل موسى الذى تعلم فى البرية؛ ومثل موسى الذى كان مترددا فى الاستجابة لدعوة الرب بخدمة الناس»، وهلم جرا. وكانت دوايت قد كرس بالفعل كتابه المسمى The Conquest of Canaan إلى واشنطن: وكانت تلك محاولة الربط بين النبوءة فى الكتاب المقدس وتقدم الشعب الأمريكى وهروبه من الطغيان البريطانى تحت زعامة موسى جديد.

ما حجم الحقيقة التاريخية فى قصة العهد القديم عن هروب بنى إسرائيل من عبوديتهم لفرعون؟ يحذف الكتاب المقدس أى ذكر عن عاصفة سياسية كبرى حدثت فى الحياة المصرية يمكن أن يشير هذا إليها. وتوفيق التواريخ بين التاريخ المصرى القديم والتاريخ كما يرويه الكتاب المقدس كانت باستمرار مسألة تخمين بدرجة كبيرة؛ بسبب نقص الأدلة. بيد أن المراجع لم تذكر أن نفى العبرانيين فى مصر لم يحدث. وما يزال هناك الكثير يحتاج إلى شرح، إذ يقرر الأستاذ جوزيف ميليتنز مودرز يچيوسكى، أستاذ التاريخ القديم فى السوربون، فى كتابه The Jews of Egypt: على النقيض من غياب الأدلة عن الحوادث السياسية، فإن الكتاب المقدس يضع كثيراً من ملامح الحياة الاجتماعية المصرية فى ظل الدولة الجديدة، فى لغة تصلح معياراً للتحقيق التاريخى والأثرى بدرجة معقولة.

وهو يجد نمطًا يمكن أن يكون شبيهًا بيوسف الذى ذكره الكتاب المقدس فى آبر ـ إل الأجنبى الآسيوى الذى ارتقى لدرجة وزير تحت حكم أمينوفيس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة. وفى الأسرة التاسعة عشرة تحت حكم الملك مينبتاح، ارتقى آسيوى اسمه بن ـ آزن إلى مرتبة عليا بين حاملى الأكواب الملكية. ولا يمكن افتراض أنهما كانا يوسف وموسى، ولكنهما يوضحان أن ترقية يوسف وموسى

لمنصب عال لم يكن أمرًا مستحيلاً . وعلى نفس المنوال ، فإن قصة الطفل موسى ، ابن أحد العبيد ، الذى تم إنقاذه من سلة طافية على سطح النهر ، وُضع فيها ليهرب من القتل المعتاد للأطفال الذكور ، يمكن أن يتوافق بسهولة مع حكايات مصرية أخرى ؛ إذ إن الشخصيات العليا كانوا أحيانًا يتبنون بالفعل أطفال العبيد الشاردين .

كانت هناك جماعات عديدة خاضعة من غير المصريين فى البلاد ، ولم يكن العبرانيون هم الأكثر عددًا بينهم بالضرورة . وقد عرفوا أحيانًا باسم " الشوسو " وعملوا فى الأعمال اليدوية كما عملوا جنودًا . وكلمة "عبيد" تبالغ فى تبسيط وضعهم . وحسبما يرى مودرزيچيوسكى ، فهم :

« لم يكونوا جماعة عريقة أو أمة وحسب ، وإنما كانوا فئة اجتماعية لها أسلوب حياة مشترك. كان أسلاف بنى إسرائيل جزءا من جماعة هامشية أكبر ، غامضة لكنها كاملة ، محل شك ولكنها مفيدة أحيانًا . . . وكان لابد وأن يجىء اليوم الذى تقوم حفنة قليلة من هؤلاء المهاجرين ، الذين لم يعد لديهم استعداد للحياة الكادحة فى بلد معاد ، بمغادرة مصر تحت قيادة رجل اسمه موسى. وبالنسبة للحكومة الفرعونية كانت تلك حادثة صغرى : رحيل مجموعة واحدة من بين عدة مجموعات من الشوسو. أما بالنسبة لبنى إسرائيل ، فقد كانت على العكس، لحظة تاريخية ذات أهمية كبرى » .

وربما لا يكون موسى قد كتب أسفار التوراة الخمسة كلها ولكنه كان بالضرورة مصدر مثل هذه القصص؛ إذ إن نضاله مع الفرعون حتى يسمح للعبرانيين بالرحيل تحول إلى قدرته بالتهديد بعدة محاولات (أوبئة) على عائلة فرعون ورعاياه . وأهمية هذه ليست فيما كانت ماهيتها بالضبط ، على الرغم من أن البثور والضفادع والهوام والجراد موصوفة فى سفر الخروج بشكل يجعل منها مخزنًا عامرًا بالكنايات للمبشرين اللاحقين . ولكن الحقيقة أنه لم يكن بوسع موسى أن يشن حملة التهديدات المرعبة التى شنها دون مساندة واتفاق مباشر مع الرب . ولا يواجه الأثريون صعوبات كبيرة فى العثور على تفسيرات طبيعية ، ولهذا فليست هناك حاجة للقول بأن هذه الأوبئة كانت إعجازية . بيد أن توقيتها يوضح أن الرب كان يوجه عنايته على مدى الزمان لصالح بنى إسرائيل . هذا فيما يتعلق بالدور المركزى الذى يلعبه الهروب من مصر فى تاريخ الخلاص : إذ إنه فى الحقيقة مفصل الحبكة

كلها . فليست ثمة موضع آخر يتدخل فيه الرب بشكل أكثر مباشرة لإنقاذ ربه من الدمار الوشيك أكثر مما فعله حينما توقفوا عند البحر الأحمر ، والفرسان المصريون يجدُّون فى أثرهم ، ثم تنشق المياه فجأة لكى يمروا ، وتُطبق مرة أخرى على مطارديهم حينما يحاولون العبور . حسبما يقول مودرزيچيوسكى :

« الحقيقة أنه بالنسبة لجيوش الفرعون ، كانت هذه القصة مناوشات بسيطة مع عصبة من عمال السخرة الذين قرروا الهرب ، حادثة ليست بذات أهمية تذكر . أما بالنسبة للعبرانيين فعلى العكس ، كانت حادثة عظمى تجلت فيها يدُ الرب ، بحيث سمحت لهم بالهرب من العبودية وبأن يصيروا أمة . كان هذا هو الميلاد الحق لإسرائيل ؛ إذ إنه ذاكره محفورة إلى الأبد فى عقيدتها» .

ومن ناحية التنميط ، كان موسى أكثر جاذبية لصانعى الأساطير فى أمريكا منه فى انجلترا ، وكان اسمه يستخدم فى المقارنات مع أشخاص مختلفين مثل چون وينثروب وچورچ واشنطن ومارتن لوثر كنج . وتم رفع الأخير إلى مرتبة نبى فى الكنيسة الإبيسكوبية فى الولايات المتحدة ـ وله عيد خاص فى تقويم الكنيسة فى يوم ٥ أبريل .

أما الربط بين دور موسى وچون وينثروب فكانت فكرته هو . ففى خطبته الشهيرة التى تحمل عنوان «A Modell of Christian Charity» والتى كتبها على ظهر السفينة آرابلا وهو يقترب من الشواطئ الأمريكية سنة ١٦٣٠م ، كانت الخاتمة :

«إننى سوف أنهى هذه الخطبة بتلك الوصية التى قالها موسى ، ذلك الخادم المخلص للرب ، فى وداعه الأخير لإسرائيل . فى سفر التثنية ٣٠ : «انظر قد جعلت قدامك الحياة والخير والموت والشر . بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكى تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك فى الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها» (سفر التثنية ٣٠ : ١٥ ـ ١٦) .

وثمة حادث له أهمية أكبر حدث خلال المسيرة الطويلة لبنى إسرائيل عبر الصحراء صوب الأرض الموعودة . وهى أرض كنعان التى كانوا قد تركوها منذ مئات السنين قبل أن تسوقهم المجاعة إلى الجنوب . وفى مواجهة تتسم بالسرية العظيمة والسمو ، رأى موسى الرب وجها لوجه عند جبل سيناء وتلقى منه ألواح الشريعة التى نقشت عليها الوصايا العشر . كانت هذه هى المبادئ الأخلاقية والدينية

التى كان على شعب الرب أن يرتبطوا بها منذ ذلك الحين فصاعدا. وبهذا كان الرب يجدد ميثاقه معهم، ويحدد الواجبات التى ترتبط بالميثاق. ومنذ ذلك الوقت، كان واجب شعب الرب تجاه الرب وواجب شعب الرب تجاه كل منهم والآخر، جزءاً من نظام متحد من الإيمان والممارسة. والتوحيد الأخلاقى يرجع فى تاريخه إلى تلك اللحظة. ولم يكن ممكنا أن يكون واضحا لمن جاءوا قبل ذلك، أن الطريق الصحيح لعبادة الرب له علاقة بالسلوك الأخلاقى.

وربما يثور اعتراض بأن الميثاق بين الإنسانية والرب، والذى تم على يد نوح بعد الطوفان، بوصاياه السبع التى تماثل بعض الوصايا العشر، يوضح أن ثمة ميلاداً سابقًا للتوحيد الأخلاقى. ولكن إذا كان موسى هو الذى كتب قصة نوح حسب أكثر الحسابات تحفظًا، فلابد أنه فعل ذلك بعد تلقى الألواح على جبل سيناء. وباختصار فإن التوحيد الأخلاقى كان سراً احتفظ به موسى لنفسه. وتنطبق نفس النقطة على القصة الواردة فى سفر التكوين عن أن إبراهيم قد تم اختياره أبًا لشعب جديد، وأنه وعد بأرض كنعان لهم، وهو ما يمثل بشيراً بنفس الوعد الذى أعطى لموسى. وربما يفترض أن كاتب سفر التكوين أو محرره (إذا لم يكن هو موسى) لم يكن يعمل بشكل منفصل عن كاتب سفر الخروج، ومن ثم لايمكن اعتبار القصتين معضدتين لكل منهما الأخرى بشكل مستقل. وإنما يمكن اعتبار كاتب سفر التكوين يقدم مادة تاريخية سابقة، لكى يعزز هبة الأرض الموعودة التى سجلها سفر الخروج ، التى كان يعرفها جيدا فى زمن الكتابة.

والوصايا العشر لاسيما تلك التى تمنع شهادة الزور والقتل والسرقة والزنا، تحتل مكان القلب فى الحضارة الغربية. والوصية التى تأمر بعدم القسم باسم الرب عبثا استمرت على مدى عدة أجيال تحدد مفهوم اللغة السيئة، كما أن الوصية بالراحة فى اليوم السابع أعطت للحضارة الغربية نموذجها الأساسى فى الأسبوع الذى يتكون من سبعة أيام واليوم السابع تغطيه قواعد مختلفة ـ بعضها أشد صرامة وبعضها أكثر استرخاء ـ عن الأيام الأخرى.

وعلى الرغم من أن العقل العلمانى لا يفهم الوصية بعدم عمل الأصنام لآلهة مزيفة، بمثل هذه السهولة، فإن لها صدى قويًا فى الجدل الأخلاقى المعاصر، بل وحتى الوصية بتكريم الأب والأم مثل الوصية بتحاشى الزنا، ما تزال تعتبر مبدأ ساريا وفعالا.

بيد أن هناك ملمحًا مثيرًا يبرز من أصول هذه الوصايا ليس واضحا بهذا القدر. فحينما قدمت الوصايا للمرة الأولى اعتبرت أنها تنطبق فقط على شعب الرب الذى كان هو بنى إسرائيل، تماما مثلما كان الإله الواحد هو رب الإسرائيليين. ويصبح هذا واضحا إذا ما نظرنا إلى الوصايا العشر فى سياق الكتاب المقدس، باعتبارها جزءًا، وإن يكن هو الجزء المركزى، من نظام أكثر تعقيدًا من القوانين والعادات الشعائرية للعبادة الصحيحة للرب الحقيقى. وبعض الشرائع سوف تصدم أى قارئ حديث باعتبارها أمرا غريبا؛ إذ إن سفر اللاويين (٢٠ : ٢٤ ـ ٢٧) مثلا يقول:

«وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضا تفيض لبنا وعسلاً. أنا الرب إلهكم الذى ميزكم من الشعوب. فتميزون بين البهائم الطاهرة والنجسة وبين الطيور النجسة والطاهرة فلا تدنسوا أنفسكم بالبهائم والطيور ولا بكل ما يدب على الأرض مما ميزته لكم ليكون نجسا. وتكونون لى قد يسين لأنى قدوس أنا الرب. وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى.

وإذا كان فى رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه.

لا تقتل مثلا كان معناها الأصلى لا تقتل الإسرائيليين بنى جلدتك، أى أنها لا تنطبق خارج حدود الشعب المختار، وهو ما يتضح من عدة نصوص مثل سفر اللاويين (٢٦ : ٣ ـ ٨):

«إذا سلكتم فى فرائض وحفظتم وصاياى وعملتم بها. أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها وتعطى أشجار الحقل أثمارها. ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون فى أرضكم آمنين. وأجعل سلاما فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم. وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض ولا يعبر سيف فى أرضكم وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف».

هذا عالم أخلاقى أصعب كثيرا على الفهم مما قد يبدو للوهلة الأولى. وأحد تفسيرات الشريعة الموسوية فى مجملها، هى رؤيتها باعتبارها مصممة لتحقيق الانسجام بين الإسرائيليين داخليا، وتحقيق النصر على أعدائهم بأى ثمن، والواقع أن الحوادث التالية يبدو أنها تستبعد أية قراءة أكثر كرمًا، ومن ناحية أخرى فإن الرب لا يبدى عدم اكتراثه الواضح بتعاليمه الأخلاقية فحسب، وإنما هو يقود الإسرائيليين لكى

يفعلوا هذا. **ويبدو أن المبدأ هو أن شعب الرب يجب أن يعامل كل منهم الآخر بطريقة صحيحة وعادلة، ولكنهم يمكن أن يعاملوا بقية البشرية بالطريقة التى تلائمهم.**

وسفر اللاويين لا يدور فقط حول الشعائر. ففى سفر اللاويين يظهر لأول مرة ما يسمى شريعة الحرب «بالعدل تحكم لقريبك. لاتسع فى الوشاية بين شعبك. لاتقف على دم قريبك. لاتبغض أخاك فى قلبك لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك» (لاويين ١٩ : ١٥-١٨). على هذا النص ألقى يسوع موعظة عن السامرى الطيب، متحديا الرأى الراسخ حول من يكون الجار أو القريب، ومن لا يكون، بأن مد نطاق هذه الفئة لكى تشهد السامرة، وهى فرقة يهودية ينظر إليها اليهود الربانيون وهم الأغلبية، على أنها طائفة غير نقية، وعلى الرغم من أنه كان يزيح الحدود فإنه حتى لم يوضح أن القريب الذى أشار إليه سفر اللاويين، الإصحاح ١٩ يمكن أن يكون أى إنسان يعيش فى أى مكان على كوكب الأرض.

هذا تفسير حديث حقًا؛ إذ إنه حتى فى العصور الوسطى المسيحية لم تكن صفة جار ممتدة فى نطاقها بحيث تشمل اليهود والمسلمين الذين كان المسيحيون يشعرون أنهم أحرار فى قتلهم بالآلاف زمن الحروب الصليبية، ولم يكن المنشقون على الكنيسة الكاثوليكية جيرانا، على نحو ما اكتشف الألبيجنسيون(*). ومثلما كان الحال زمن موسى، كان لابد للجار أن يكون ضمن من يؤمنون بالدين أو العقيدة، أى أن يكون عضوا آخر من شعب الرب. وبعد حركة الإصلاح الدينى ولاسيما فى المستعمرات التى استوطن بها البيوريتان، لم ينطبق مفهوم الجار بشكل عام على السكان الأصليين «المتوحشين»، كما أنه لم ينطبق بعد ذلك بوقت قليل على العبيد فى الجنوب، وإحدى التهم الموجهة إلى حكم جورج الثالث والواردة فى إعلان الاستقلال لا تشير فقط إلى الهنود الحمر بمصطلحات تتجاوز المقبول، وإنما تذكر كذبًا الزعم بأن البريطانيين قد حاولوا توجيه العبيد للتمرد ضد سادتهم. والأمريكيون الأصليون الذين يطلق عليهم اسم الهنود، سرعان ما اكتشفوا مثل الكنعانيين قوة النص الوارد فى سفر اللاويين: «يطرد خمسة منكم مئة، ومئة منكم

(*) الألبيجنسيون طائفة مسيحية ظهرت فى جنوب فرنسا فى العصور الوسطى (القرن الثانى عشر)، وقد عرفوا أيضا باسم «الأطهار» أو «الكاثاريين»، وكانوا ينكرون بعض مذاهب الكنيسة الكاثوليكية. وقد شنت عليهم البابوية بالتعاون مع الملكية الفرنسية الإقطاعية حربا خربت جنوب فرنسا المزدهر والأرقى من الشمال، واستمرت الحرب أكثر من ربع قرن ـ المترجم.

يطرد ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف». **وحتى الكنديون الفرنسيون، الذين غزاهم جيش ثورى أمريكى ذاقوا لفترة قصيرة، طعم أن يكونوا كنعانيين سنة ١٧٧٦م.**

والحقيقة أن المبدأ العام لايزال ساريا؛ ذلك أن تلك الأمم التى شكلت هوياتها سواء فى الحاضر أو فى الماضى تحت لافتة «الشعب المختار» ما تزال تعمل على تحديد «الجار» بحيث يكون معناه أعضاء فى نفس الوطن. أما واجب التضامن العالمى الكونى - أى مفهوم نظام لحقوق الإنسان ينطبق بالتساوى على الجميع بغض النظر عن الجماعة الوطنية أو العرقية التى ينتمون إليها - فهو فكرة حديثة للغاية. وكل ما يرخص به العهد القديم، فى المعنى الواضح لنصه على الأقل، مجموعة من الحقوق لأولئك الذين هم فعلاً داخل الشعب المختار.

ومع هذا فإن الرسالة الواضحة لأفضل الزعماء اليهود كانت متسقة على مر العصور: إذ إن العبرة بكون جماعة «الشعب المختار» ليست تسييدها فوق الآخرين ولكن أن تكون «نورا للأمم». فالرب لم يختر ولا يختار شعبًا واحدًا من بين بقية الشعوب؛ لأنه يسره أن يكون له من يؤثرهم؛ إذ إن على الشعب المختار واجبًا باستخدام مكانتهم ووضعهم لصالح البشرية جمعاء، وعليهم أن يتوصلوا بالقدوة لتعليم درس الأخلاق ودرس عبادة إله، واحد حقيقى - وهما الدرسان اللذان أحضرهما موسى من جبل سيناء. ولكن إذا اختفت الميزة التى لصالح البشرية، وكل ما يمكن أن يراه أولئك الذين ينظرون إلى الشعب المختار هو الفساد، والظلم، وإساءة استخدام القوة والثروة، والتخلى بشكل عام عن الأسمى فى سبيل المباهج المادية قصيرة المدى، فإن الرب حينئذ سوف يسحب حمايته، سيغرق الشعب المختار فى زمن من الويل والمصائب، وقبل أن يعترى الرب اليأس من الشعب المختار، يحاول أن يعيدهم إلى الإحساس الحقيقى بالنداء الدينى الداخلى. وسوف يرسل الأنبياء لتحذيرهم، والمصائب لعقابهم والثواب لراحتهم، وإذا ما كانوا مؤمنين فسوف يرسل إليهم الانتصارات على أعدائهم والسلام والانسجام الداخلى والخارجى، وزمنا من الازدهار والرفاهية.

وسوف تكون أحكامه الحاسمة عن كيف عامل الشعب المختار الضعفاء ومن لا حيلة لهم - فى العهد القديم (سفر الخروج ٢٢ : ٢٢) «لا تسىء إلى أرملة أو يتيم»

والعدالة فى أعين البشر تتصل صلة وثيقة بالتبرير فى عينى الرب. وهذا هو المعنى الحقيقى للميثاق، فى أعين أولئك القادة اليهود الذين هم أكثر انغماسًا فى حكمة دينهم. فهم يعرفون أحسن من معظم الناس؛ لأنهم يعرفون كتابهم المقدس أفضل من معظم الآخرين، إن مجرد التمتع بامتيازات الاختيار قد يجلب غضب الرب.

قال الربای الرئيسى لليهود فى بريطانيا العظمى، الدكتور جوناثان ساكس، فى مقالة بصحيفة الجارديان كتبها فى ضوء الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمى بنيويورك:

«لقد صار الدين قوة عظمى فى تشكيل حوادث العالم- وإذا لم يصبح الدين جزءا من الحل، فلا شك فى أنه سيكون جزءا من المشكلة.

إن القوى الخلاقة والقوى المدمرة فى الديانات الكبرى غالبا ما تعملان سويا؛ إذ إن الدين يربط الناس ببعضهم كجماعات؛ وهذه هى قوتهم فى عصر فيه البنايات الأخرى للمعنى والعلاقات مشوشة ومقهورة. بيد أن نفس الأسوار التى نبنيها حول أنفسنا للحماية المتبادلة تفصلنا عن أولئك الذين يقفون فى الخارج؛ إذ إن كل «نحن» تخلق «هم». وذلك هو السبب فى أن الديانات، على الرغم من أنها تجلب السلام داخل حدودها يمكن أن تكون باعثًا على الحرب عبر هذه الحدود.

لقد مرت البشرية بهذا من قبل؛ ذلك أن صفحات التاريخ ملطخة بالدم الذى أريق فى الحملات الصليبية، والجهاد، ومحاكم التفتيش، والمذابح والفتن، والحروب الدينية التى مزقت وجه أوروبا وشوهته فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفى الماضى كان معظم الناس محاطين بآخرين يشاركونهم التاريخ والتقاليد وأحد المذاهب الدينية. أما اليوم فإن حياتنا تضطرم بصراعات بعيدة عنا وثقافات تختلف عن ثقافتنا تمامًا. ولم يحدث أبدا من قبل أن واجهت الديانات تحديا مصيريا بالسماح بفضاء للاختلاف مثلما هو حادث الآن- الآخر، الكافر الذى لم يؤمن.

هل يمكن أن نرى صورة الرب فى فرد ليس على صورتنا؟ هل يمكن أن نسمع صوته فى لهجات غير لهجتنا؟ هل يمكن أن نتعلم أن نحب الغريب؟ لقد أعطانا الرب ديانات كثيرة، ولكن واحدة فقط يجب أن نعيش فى رحابها سويا، بيد أنها تصغر كلما مضى الزمن».